لماذا كفروا؟

فإن قلت إذا كان الحق موجوداً والطريق إليه ممهداً فلماذا انقسم الناس إلى قسمين مؤمنين وكافرين..؟

قلت: سئل مثل هذا السؤال الإمام علي بن أبي طالب سأله عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما فقال: أخبرنا يا أمير المؤمنين على ماذا بني الكفر؟ فقال: على الجفاء والعمى والغفلة والشك، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء. ومن عمى نسي الذكر، ومن غفل حاد عن الرشد، ومن شك غرته الأماني فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب.

أخبر ﷺ أن الكفر له أسباب منها الجفاء الذي يحمل على احتقار الحق والجهر بالباطل ومقت العلماء ومنشؤه فرح الإنسان بما عنده من العلم وغروره بعقله فلا يقبل نصحاً ولا يرى به حاجة إلى الإرشاد والتعليم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو غيرهم. كما حكاه الفخر عن بعض الفلاسفة وقد كان في زمن موسى عليه الصلاة والسلام قيل له ألا تذهب إليه وتعرف ما عنده، فقال مثلنا لا يحتاج إلى الأنبياء.

ومنها العمى، أي عمى البصيرة. فمن عميت بصيرته نسي التذكر والاعتبار وأخطأ الطريق الموصل إلى المقصود فلا يعرف أي طريق يسلك. ولا أي حجة يعتمد عليها فيطلب المعقول من طريق المحسوس ويزن الأشياء بغير موازينها، أو يخل بالشروط المعتبرة في البراهين فلا يهتدي لحق ولا يرعوي عن باطل.

ومنها الغفلة التي تنشأ عن الاستغراق في أشغال الدنيا وتدبير مصالحها

والانهماك في شهواتها فلا يجد الإنسان فراغاً يرجع فيه لعقله وينظر فيما حوله من الآيات.

ومنها الشك في أصول الأدلة ومقدمات البراهين.. وهذه بلية يبتلي الله تعالى بها من لا نصيب له في السعادة فلا يصل إلى يقين في شيء ما. كالذي يشك في معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا يعتقد أنها اختصاصات إلهية لتعضيدهم وتأييد دعوتهم، ويتوهم أنها من قبيل السحر أو من طوالع النجوم أو نحو ذلك.

وقد ضرب الإمام رضي الله تعالى عنه مرة للدنيا والآخرة ثلاثة أمثلة قال: ها ككفتي الميزان إذا رجحت إحداهما طاشت الأخرى، وكالضرتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الثانية، وكالمشرق والمغرب من سار في طريق منهما بعد عن الآخر.. يعني أن من صرف عنايته إلى شيء حتى تعمق فيه قصرت بصيرته عن غيره.

وقال الشيخ ابن تيمية: ولا عجب ممن لم تؤثر فيه كثرة معجزاته صلى الله عليه وسلم الباهرات، ودلائله الظاهرات، وآياته البينات التي تبلغ الألوف المؤلفة كما بينه العلماء فإن ضلالهم الذي نشأوا عليه قد امتزج باللحم والدم وسري في أرواحهم سريان الماء في العود، فلا تنفعهم بعد هذا كثرة الحجج وقوة البراهين.. أما من سبقت له السعادة في الأزل وألقي الله تعالى في قلبه نور الهدى فإنه يقنعه أيسر شيء كما أنك لو عبرت بجميع العبارات، ونوعت أساليب الكلام على أن تفهم الأعمى الذي خلقه الله تعالى أعمى هذه الألوان الكونية المختص إدراكها بالبراء لا يمكن أن يصل إلى ذلك.. أما من خلقه الله تعالى بصيراً أو كشف عن بصره صغيراً أو كبيراً فإنك تقدر على أن تفهمه ذلك بأيسر العبارات.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: القلب قلبان: قلب قد احتشى بأشغال الدنيا

حتى إذا حضر أمر من أمور الطاعة لم يدر صاحبه ما يصنع لشغل قلبه بالدنيا. وقلب قد احتشي بأشغال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر صاحبه ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة.

وفي كتاب الإبريز عن العارف الدباغ: ليس في مخلوقات الله تعالى كلها أحسن من خلقة بني آدم فذواتهم أحسن ذوات المخلوقات وأرفعها وأقومها ومع ذلك فقد جرى في سابق علمه تعالى، أن جعل طائفة منهم إلى الجنة وطائفة إلى النار، وذلك بسبب حجب بصائرهم عنه تعالى: فإنه تعالى أولاً جعل في تلك الذات الروح وسرها الذي هو العقل ومعرفة الله تعالى ونور الإيمان به مع المشاهدة، ورفع جل وعلا الحجاب بينه وبينها فحصلت لها المعرفة بخالقها على الوجه الأكمل.. فلما أراد الله تعالى إنفاذ الوعيد وضع الحجاب على تلك الذات فزالت المشاهدة، ووقعت القطيعة وياليتها حيث وقعت لها القطيعة لم تتعلق بشيء، فإن ذلك خير لها مما وقعت فيه. وذلك أنها نظرت إلى خيط نور العقل الذي بقي فيها فتعلقت به وجعلته عمدتها وسندها في كل شيء فزادها ذلك قطيعة. انتهى.

أي أنهم فرحوا بما عندهم من العلم واغتروا بما لهم من العقل فلم يصغوا إلى دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولم يستضيئوا بأنوار الشرائع المنزلة لأن الله تعالى أراد حرمانهم وقطيعتهم نعوذ بالله تعالى من كل سوء ونسأله الرحمة والرضا.

وما أحسن قول من قال من العارفين: "من لحقته العقول– أي كيفته وعرفت حقيقته– فهو مقهور إلا من جهة الإثبات– يعني اعتقاد وجوده مع العجز عن معرفة حقيقته– ولولا أنه تعرف إليها– أي العقول– بالألطاف ما عرفته".

وقول الآخر: (لا يعرف الله تعالى إلا من تعرف إليه ولا يوحده إلا من توحد له، ولا يؤمن به إلا من لطف به، ولا يصفه إلا من تجلى لسره، ولا يخلص

له إلا من جذبه إليه، ولا يصلح له إلا من اصطنعه لنفسه).

فسبحان من احتجب عن بصائر العميان– كما قال الإمام الغزالي– غيرة على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبقت له منه الحسنى الذين هم عن نار الحجاب مبعدون وترك الخاسرين في ظلمات العمى يتيهون، وفي مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون "يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ"،[1] "الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"[2]

فلا يغرنك جحود الجاحدين، وضلال الضالين، ولا يهولنك ما عندهم من الكياسة والحذق في علوم الحساب والهندسة والطب ولا ما وضعوه من السياسات وأظهروه من المكتشفات والمخترعات فليس في عقولهم متسع لطلب الحق، ولا في قلوبهم رغبة لمعرفته لأنهم سخروا عقولهم لخدمة شهواتهم وحظوظ أنفسهم، واستعملوها في السيطرة والتسلط على الناس واغتصاب حقوق الشعوب، على أن العقول مهما بلغت من الذكاء والحذق فإنها لا تستغني عن هداية الله تعالى وتوفيقه. "وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا"[3]

كفروا بالرحمن فاستعبدهم الشيطان

الإنسان في هذه الحياة الدنيا لا يقف موقفا سلبياً، ولا يعيش بغير عقيدة وعمل فمن لم يؤمن بالله تعالى آمن بالشيطان الرجيم من حيث لا يشعر.. من لم يتخذه عز وجل إلهاً اتخذ إلهه هواه.. ومن لم يعمل للآخرة عمل للدنيا ولا بد، فقلب الإنسان مثله مثل القدح، والقدح إن خلا من الماء لم يخل من الهواء. فكذلك القلب إن خلا من الإيمان وتوحيد الله تعالى لم يخل من العقائد الفاسدة

---

[1] سورة الروم الآية ٧

[2] سورة لقمان الآية ٢٥

[3] سورة النور الآية ٢١

والأفكار الخبيثة.. والنفس كالرحا إن قدمت لها حباً طحنته، وإن قدمت لها حصا طحنته.

قال الله تعالى: "وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ"[1]

وقال ﷺ: "الناس غاديان فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها" ومن خطبة الإمام علي ﷺ: "ألا وإنه من لم ينفعه الحق يضره الباطل ومن لم يستقم بالهدى يجر به الضلال".

وعن الإمام الشافعي ﷺ: النفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.
وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى في رسالة "العبودية":

كل من استكبر عن عبادة الله تعالى لا بد أن يعبد غير الله فإن الإنسان حساس بالإرادة.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: (أصدق الأسماء حارث وهمام" والحارث الكاسب الفاعل.. والهمام– فعال من الهم– والهم أول الإرادة، فالإنسان له إرادة دائمًا وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه فلابد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهي حبه وإرادته. من لم يكن الله تعالى معبوده ومنتهي حبه وإرادته، بل استكبر عن ذلك فلا بد أن يكون له مراد محبوب يستعبده غير الله تعالى فيكون عبداً لذلك المراد المحبوب.

وقد ورد في الأثر: "إن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ" لأن الشاب إذا تعطل عن عمل بشغل باطنه ولو مباحاً يستعين به على دينه كان ظاهره فارغاً ولا يبقي قلبه فارغاً أبداً بل يصول الشيطان فيه ويجول ويعشش فيه ويبيض ويفرخ ثم تتزاوج أفراخه وتبيض مرة أخرى وتفرخ وهكذا يتوالد نسل الشيطان

---

[1] سورة الزخرف آية: ٣٦

توالداً أسرع من توالد سائر الحيوانات. وقد لحظ هذا من قال من المستشرقين. ما من إنسان يستطيع أن يكون غير مؤمن فقد ركب الإنسان من الناحية النفسانية بحيث أصبح مضطراً إلى الإيمان بالله أو بغيره.

حماية الفطرة

نريد بالفطرة هنا "الجهاز الروحي" الذي منحه الله تعالى للإنسان واختصه به دون سائر الحيوانات وهو جملة أمور:

منها وهو رأسها وأساسها، العقل الذي استودعه الله تعالى العلوم الضرورية التي تدرك بالبداهة ولا تحتاج إلى كسب وتعليم. ومكنه بواسطة ذلك من اكتساب العلوم النظرية التي تدرك بالفكر والنظر وجبله على التصديق بالغيب متى توفرت له الأسباب التي تقتفي ذلك.

ومنها الغرائز التي يحب بها الإنسان ما وافته ويبغض ما خالفه وآذاه. ومنها الحواس الظاهرة من السمع والبصر، والذوق والشم واللمس. والحواس الباطنة الحافظة والمتخيلة.

ومنها الإرادة التي تنبعث بإشارة المال لما فيه المصلحة والعاقبة المحمودة.. ومنها الحياء الذي يبعث على فعل المستحسنات وترك المستقبحات..

هذه الفطرة الإنسانية منحة إلهية عظيمة اختص الله تعالى بها الإنسان ليهتدي بها إلى معرفته عز وجل وقبول ما جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فكما أنعم الله تعالى على الإنسان بالنعم الحسية، من أرض تقله، وسماء تظله، وهواء يعيش به، ويسر له أسباب الرزق الذي يقيم بدنه.. وجهزه بأجهزة جسمانية ظاهرة "كجهاز التنفس" "والجهاز الهضمي" وغير ذلك من لوازم بنيته وضرورات حياته.. فكذلك أنعم عليه بهذه الفطرة وهذا الجهاز

الروحاني الكبير الذي يكتسب به المعارف والعلوم ويحيا به الحياة الروحية الطيبة..

قال الله عز وجل: "وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"[1]

فوجب والحالة هذه العناية بالفطرة الإنسانية والمحافظة عليها حتى تبقى سليمة مستقيمة بعيدة عن الخلل والاضطراب.. وذلك إنما يكون بتعهد الطفل من صغره وتلقينه العقائد الصحيحة، وتعويده على الأخلاق الدينية الفاضلة.

ولا تظن أن قوله ﷺ "كل مولود يولد على الفطرة" معناه أن كل مولود يولد كاملاً بالفعل غير محتاج إلى التربية والتعليم. بل معناه أن كل مولود يولد معتدلاً قابلاً للمعرفة والكمال.

فمثل الفطرة مثل البدن. فكما أن الأصل في البدن اعتدال أمره وإنما تعتريه المضرة من الأغذية والأهوية الفاسدة فكذلك الأصل في الفطرة والنفس الباطنة الاستقامة والاعتدال.. وكما أن البدن لا يخلق في الابتداء كاملاً وإنما يكمل بالتغذية والتربية فكذلك الفطرة تخلق ناقصة قابلة للكمال وكمالها بالتربية الدينية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم النافع وإلا تعرضت للفساد والاضمحلال.

يقول الحكيم الترمذي: قد ذكر الله تعالى جزاء من يقطع على الناس مكاسبهم الدنيوية بقوله عز وجل: "إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ

---

[1] سورة النحل الآية: ٧٨

يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ"[1]، فماذا يستحق من الجزاء من يقطع على الناس سبيل سفرهم إلى الله تعالى.

ولا شيء يقطع سبيل السفر إلى الله تعالي كإهمال الفطرة الإنسانية وعدم تعهدها بالتربية وغرس المبادئ القويمة، وتركها نهبة للناهبين وعرضة للمفسدين المضلين.

قال ابن أبي زيد في مقدمة رسالته: واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير، وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه وأولى ما عني به الناصحون، ورغب في أجره الراغبون، إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين ليرسخ فيها وتنبيهم على معالم الديانة وحدود الشريعة ليراضوا عليها، وما عليهم أن تعتقده من الدين قلوبهم، وتعمل به جوارحهم، فإنه روى أن تعلم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الله، وأن تعليم النشء في الصغر كالنقش على الحجر، وكتب شارحه عند قوله وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه ما نصه: لأنه إذا لم يسبق الشر إليه قبل ما يرد عليه من الخير أحسن قبول وإذا سبق إليه اعتقاد الشر عظمت الحيلة في إزالته كالآنية الجديدة يجعل فيها القطران فلا تزول منها رائحته إلا بعد تعب ومشقة.

الجهاد

قال الله تعالى في كتابه العزيز: "إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا"[2]

وقال ﷺ في الحديث الصحيح (إن الله تعالى مستخلفكم في الدنيا فينظر

---

[1] سورة المائدة الآية: ٣٢

[2] سورة الكهف الآية ٧

ماذا تعملون) فهذه الحياة الدنيا دار محنة وميدان جهاد.

ومن تراجم الإمام البخاري في صحيحه (باب من جاهد نفسه في طاعة الله تعالى) ثم ذكر حديث معاذ رضي الله تعالى عنه وهو قوله (كنت رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل فقال يا معاذ، قلت لبيك يا رسول الله وسعديك.. ثم سار ساعة ثم قال يا معاذ؛ قلت لبيك يا رسول الله وسعديك.. ثم سار ساعة.. ثم قال يا معاذ، قلت لبيك يا رسول الله وسعديك؛ قال هل تدري ما حق الله على عباده؟ قلت الله ورسوله أعلم؛ قال حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.. ثم سار ساعة ثم قال يا معاذ بن جبل؛ قلت لبيك يا رسول الله وسعديك، قال هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه– أي المذكور من العبادة وعدم الإشراك – قلت الله ورسوله أعلم، قال حق العباد على الله أن لا يعذبهم). وفي رواية (أن يغفر لهم ولا يعذبهم) وفي أخرى (أن يدخلهم الجنة)

فبين عليه الصلاة والسلام أن طاعة الله تعالى باجتناب معاصيه وفعل مراضيه هو الحق الواجب على العباد لله تعالى لأنه خلقهم ورزقهم وكرمهم وفضلهم على كثير من خلقه بالعقل والفهم والبيان باللسان والكتابة والإشارة والخط، وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض، وعرفهم ما ينفعهم وما يضرهم، ومكنهم من الصنائع وحبب لكل منهم صنعة خاصة لينتظم شملهم وتسعد جماعتهم.. فمقتضى عبوديتنا له عز وجل أن نعبده ونطيعه، ولا نشرك به شيئاً كما قال الله عز وجل "وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ".. وقد تكرم سبحانه وتفضل إذا نحن فعلنا ذلك أن يغفر ذنوبنا، ولا يعذبنا ويدخلنا الجنة. وقد سمي ذلك النبي ﷺ حقاً للعباد على الله. لأن مقتضى كرمه وفضله أن يفعل ذلك مع أنه تعالى لو جعل جزاء عبادتنا له في الدنيا أن خلقنا ورزقنا لكان كافياً

ولكنه زاد الفضل وأسبغ النعمة ظاهراً وباطناً.

وإنما ترجم البخاري لهذا الحديث الشريف بترجمته السابقة للإشارة إلى أن التوحيد والعبادة فيه مجاهدة للنفس.. التوحيد مجاهدة عقلية باطنية القطع غواشي الوهم والحس.. والعبادة مجاهدة قلبية بالإخلاص والتواضع، واليقين، والخشية، والصبر، والرضا، والمحبة، والتوكل، والزهد.. إلخ، وبدنية بفعل الصلاة والصوم والحج والزكاة والكف عن المحرمات فتأمل فقه البخاري ودقيق نظره.

وأخرج قبيل ذلك بأبواب يسيرة حديث "حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره"- بريد ﷺ أن النار لا نجاة منها إلا بترك الشهوات وهي الأمور المستلذة الممنوع منها شرعاً كالزنا والخمر والملاهي وما إلى ذلك. مما ورد الشرع بذمه والنهي عنه.. والجنة لا يتوصل إليها إلا بتحمل المكاره ومجاهدة النفس في العبادة والصبر على مشاقها والمحافظة عليها. وهذه سنة الله تعالى وحكمته في خلقه وهي أن السيادة والكمال في الدنيا والآخرة إنما يتحقق بتحمل المشاق. كما قال الشاعر:

لولا الشدائد ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال

وقد مثل الحكماء النفس في البدن بوال بعثه مولاه إلى ثغر من الثغور يراعي أحواله، وعقل الإنسان خليفة مولاه ضمه إليه ليسدده ويرشده و يشهد له وعليه ما يفعله إذا عاد لحضرة مولاه ومثل البدن وما ركب فيه من الجوارح والحواس بمنزلة فرس دفع إليه ليركبه، ومثل شهوته مثل سائس ضم إليه لتعهد فرسه، والقرآن الكريم بمنزلة كتاب أتاه من مولاه وقد ضمن كل ما يحتاج إليه الإنسان عاجلاً وآجلاً كما وصفه الله تعالى بقوله "وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا

لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ"[1].

والنبي عليه الصلاة والسلام رسول أتاه من مولاه بالكتاب ليبين له ما يشكل عليه منه فقبيح أن ينسى هذا الوالي مولاه، ويمهل خليفته – العقل– فلا يراجعه فيما يبرمه وينقضه، ويصرف همه كله إلى تفقد فرسه وسائسه، ويقيم سائس فرسه مقام خليفة ربه.

وقالوا: إنما خص الإنسان بالقوى الثلاث، الشهوة، والغضب، والعقل ليسعى في فضيلتها: وفضيلة القوة الشهوية تطالبه بالمكاسب التي تنمية، وفضيلة القوة الغضبية تطالبه بالمجاهدة التي تحميه، وفضيلة القوة المقلية تطالبه بالعلم الذي يهديه، فحقه أن يتأمل ذلك ويسعى إلى ما يفيده السعادة وينقله من الذل إلى العز، ومن الفقر إلى الغنى، ومن الضعة إلى الرفعة، ومن الخمول إلى النباهة دنيا وأخرى.

قال الإمام أحمد: قبيح من أعطى شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي معتمداً على غيره– يعني العقل–.

فيجب على الإنسان استثمار عقله في التدبر والاعتبار، والتفقه في الدين وتفهم آيات الله تعالى التكوينية والتنزيلية. كما يجب عليه استثمار قوته وإرادته في العمل المفيد، وإذا كانت مطالب الدنيا الحقيرة لا تحصل ولا تتم إلا بكد اليمين، وعرق الجبين، فطالب الآخرة وملكها العظيم أولى بالتعب، وأحق بالاجتهاد.

فانفض عنك غبار الكسل أيها الرجل واحذر من المماطلة والتسويف، واسمع نصيحة نبيك ﷺ حيث يقول: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من

---

[1] سورة النحل آية ٨٩

المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز". واعلم أن أمر الدنيا والآخرة مبني على الجهد والعمل، فلا ينال مطلوب فيهما إلا بتعب ومشقة، كما قال تعالى "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ"[1]

وهذا إخبار عما سبق في عامه القديم، وجرى به تدبيره الحكيم، لا محيص منه ولا حيلة في رده، والإنسان بما ركب فيه من الغرائز، وما منح من العلم والإرادة لا بد أن يحس بما حوله، ويتأثر بما يرى ويسمع، ولا بد أن يريد ويسعى، إما للخير وإما للشر. وقد قضت حكمة الله تعالى وجرت عادته أن يمد كل عامل ويهيئ له أسباب ما يريده ويختاره. قال تعالى: "كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا"[2]

معرفة الله تعالى

معرفة الله تعالى هي غاية الغايات، وأهم المقاصد. العلوم كلها لها خدم، وهي الحرة المصدوقة.

روى أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال يا رسول الله علمني من غرائب العلم، فقال ﷺ: ما صنعت في رأس العلم، فقال وما رأس العلم؟ قال ﷺ: هل عرفت الرب تعالى؟ قال: نعم. قال فما صنعت في حقه؟ قال: ما شاء الله. فقال ﷺ: هل عرفت الموت؟ قال: نعم. قال: فما أعددت له؟ قال: ما شاء الله. قال ﷺ: أذهب فأحكم ما هناك ثم تعال نعلمك من غرائب العلم".

وقيل إنه رؤي صورة حكيمين من الحكماء في بعض المساجد وفي يد أحدهما رقعة فيها: إن أحسنت كل شيء فلا تظنن أنك أحسنت شيئاً حتى

---

[1] سورة البلد الآية: ٤.

[2] سورة الإسراء الآية: ٢٠.

تعرف الله وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء. وفي يد الآخر، كنت قبل أن أعرف الله تعالى أشرب وأظمأ حتى إذا عرفته رويت بلا شرب.

واعلم أن الله تعالى ذات حقيقي موجود بصفاته العليا، وأسمائه الحسنى بل هو أظهر الموجودات وأكملها وأشرفها.. وهو الحي القيوم القائم بنفسه والقائم به كل موجود سواه. لا يحجبه بعد ولا تخلل حائل.. لو كشف عنا الغطاء لرأيناه في هذه الحياة الدنيا كما سنراه في الآخرة ظاهراً بجماله وجلاله من غير تكييف ولا تحديد.

وقد كان عز وجل قبل أن يخلق الخلق كنزاً مخفياً، على ما ورد في بعض الآثار– أي غير معروف لأحد، إذ لا شيء هناك معه.. فلما خلق الخلق وأراد أن يكلفهم بمعرفته وعبادته أعطاهم العقول ومكنهم من النظر والاستدلال، وأرسل إليهم الرسل عليهم الصلاة والسلام بالآيات البينات، والمعجزات الباهرات، ليدلوهم عليه ويعرفوهم بصفاته وأسمائه.. ولو شاء سبحانه أن يعرفهم نفسه بغير واسطة لفعل، بأن يكشف لهم عن جماله وجلاله فيروه معاينة بضرورة حواسهم، ولو شاء أن يسمعهم كلامه القديم لأسمعهم. ولكن اقتضت حكمة الله عز وجل أن يمتحن البصائر والعقول في هذه الحياة الدنيا لتكون معرفته بآياته وآثار صنعته أبلغ في الحكمة وأظهر في تباين الرتبة.

قال ابن عطاء الله السكندري في (الحكم): أمرك في هذه– يعني الدنيا– بالنظر في مكوناته وسيكشف لك في تلك– يعني الآخرة– عن كمال ذاته. وجعل الراغب معرفة الله تعالى على قسمين:

معرفة إجمالية عامية، قال: إنها مركوزة في النفوس الإنسانية وهي معرفة كل أحد أنه مصنوع وأن له صانعاً صنعه ونقله في الأحوال المختلفة وهي المشار

إليها بقوله تعالى: "فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا"(١)، وبقوله عز وجل: "صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً"(٢) وقوله: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى"[٣] فهذا القدر من المعرفة في نفس كل أحد، ويتنبه العاقل إليه إذا نبه عليه، ومن هذا الوجه قال تعالى:"وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ"[٤] وقال في مخاطبة المؤمنين والكافرين: "ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ"[٥] وقال بعده: "ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ"[٦]

ومعرفة تفصيلية مكتسبة، وهي معرفة توحيده وما يجب أن يثبت له من الصفات، وما يجب أن ينفي عنه وهذه هي المعرفة التي دعي إليها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ولهذا قالوا كلهم: قولوا «لا إله إلا الله، ولم يدعوا أحدا إلى نفس المعرفة بالله تعالى، بل دعوا إلى توحيده ومعرفة صفاته.

وفي هذا يقول بعض المستشرقين: إن الإيمان سابق على الكنائس والمذاهب– أي موجود في الفطرة قبل نزول الشرائع.

ويقول بعضهم أيضاً: إن الإنسان يهتدي إلى الله تعالى بالوحي وبغير الوحي، وإن كان الوحي أهدى وأفضل.

وعن الإمام أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه: المعرفة معرفتان معرفة تعرُّف، ومعرفة تعريف. معنى التعرف أن يعرفّهم نفسه تعالى بواسطة تجليه على

---

(١) سورة الروم الآية: ٣٠

(٢) سورة البقرة الآية: ١٣٨.

(٣) سورة الأعراف الآية: ١٧٢

(٤) سورة الزمر الآية: ٣٨

(٥) سورة النحل الآية ٥٣

(٦) سورة النحل الآية ٥٤

قلوبهم، ثم يعرفهم الأشياء به، ومعنى التعريف أن يريهم آثار قدرته في الآفاق وفي أنفسهم، ثم يحدث فيهم لطفاً حتى تدلّهم الأشياء أن لها صانعاً حكيماً.

والأولى معرفة الخواصّ، والثانية معرفة عوامّ المؤمنين.

وهذا معنى قول الغزالي في "الإحياء" والواصلون إلى هذه الرتبة يعني المعرفة بالله تعالى، ينقسمون إلى الأقوياء، ويكون أول معرفتهم لله تعالى. ثم به يعرفون غيره، وإلى الضعفاء ويكون أول معرفتهم بالأفعال ثم يترقون منها إلى الفاعل. وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى: [شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ[1]] ومنه نظر بعضهم حيث قيل له: بم عرفت ربك؟ قال عرفت ربي بربي، ولولا ربي لما عرفت ربي.. وإلى الثاني الإشارة بقوله تعالى: [سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ[2]] وبقوله عز وجل: [قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ[3]] وبقوله عز وجل: [أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ[4]] وبقوله تعالى: [الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ][5]

وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين، وهو الأوسع على السالكين وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر والتفكر والاعتبار، والنظر في آيات خارجة عن الحصر.

قلت: وهذا الطريق الأسهل على الأكثرين، الأوسع على السالكين هو

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٨

(٢) سورة فصلت الآية ٥٣

(٣) سورة يونس الآية ١٠١

(٤) سورة الأعراف الآية: ١٨٠

(٥) سورة تبارك الآيتان ٥: ٣، ٤

الطريق الطبيعي، والمنهاج الفطري الذي ذكرناه فيما سبق تحت عنوان "كيف تفهم" وقلنا هناك إنه لا جديد فيه على الإنسان، ولا شيء فيه أكثر من استحضار العلوم الضرورية والمبادئ الفطرية المركوزة في النفس.. ثم العمل بمقتضاها.. كما يفعل الإنسان في شئونه الدنيوية، وكما يجري عليه الناس في صناعاتهم ومعاملاتهم ومخاطباتهم.

ولا بأس أن نذكر لك زيادة على ماسبق بعض نماذج من هذه الطريقة الفطرية لتزداد معرفة وإيماناً بأنه عز وجل أظهر الموجودات وأجلاها على الإطلاق، وأن معرفته سبحانه هي أقرب المعارف إلى النفوس وأسبقها إلى الأذهان لأنها مبنية على أمر ضروري مركوز في كل فطرة، وهو افتقار كل صنعة لصانعها.. حتى قال الإمام الفخر "في المعالم": إن العلم بهذه القضية مركوز في طبع الصبيان فإنك إذا لطمت وجه الصبي حيث لا يراك وقلت هذه اللطمة من غير فاعل البتة لايصدقك. بل في فطرة البهائم، فإن الحمار إذا أحس بصوت الخشبة فزع لأنه تقرر في فطرته أن حصول صوت الخشبة بدون الخشبة محال...

قال الإمام أبو الحسن الأشعري: الإنسان إذا فكر في خلقته من أي شيء ابتدأ وكيف دار في أطوار الخلقة طوراً بعد طور حتى وصل إلى كمال الخلقة،

وعرف يقيناً أنه بذاته لم يكن ليدبر خلقته وينقله– أي ينقل نفسه– من درجة إلى درجة، ويرقيه من نقص إلى كمال. علم بالضرورة أن له صانعاً عالماً قادراً إذ لا يتصور حدوث هذه الأفعال المحكمة من طبع؛ لظهور آثار الاختيار في الفطرة وتبين آثار الإحكام في الخلقة.

وكتب الغزالي في كتابه "المقصد الأمني في شرح أسماء الله الحسنى" شرحاً لأسمه تعالى (الباطن) واسمه (الظاهر) قال: الله سبحانه وتعالى باطن إن طلب من

إدراك الحواس وخزانة الخيال، ظاهر إن طلب من خزانه العقل بطريق الإستدلال. فإن قلت: أما كونه باطناً بالإضافة إلى إدراك الحواس فظاهر– أي واضح لا خفاء فيه – وأما كونه ظاهراً بالاضافة إلى إدراك العقل فغامض إذ الظاهر ما لا يتمارى فيه ولايختلف الناس في إدرا كه وهذا – يعني وجود الله تعالى– مما وقع فيه الريب لكثير من الخلق فكيف يكون ظاهراً؟ فأعلم أنه إنما يخفي مع ظهوره لشدة ظهوره. فظهوره سبب بطونه، ونوره هو هو حجاب نوره فكل ما جاوز عن حده انعكس إلى ضده.. ولعلك تتعجب من هذا الكلام وتستبعده ولاتفهمه إلا بمثال، فأقول: لو نظرت إلى كلمة واحدة وكاتب يكتبها لإستدللت على كون الكاتب عالماً قديراً سميعاً بصيراً، واستفدت منها اليقين بوجود هذه الصفات لذلك الكاتب، بل لو وجدت كلمة مكتوبة –يعني من غير أن ترى كاتبها– لحصل لك يقين قاطع بوجود كاتب لها عالم قادر سميع بصير حي، ولم يدل عليه – أي الكاتب المذكور– إلا صورة واحدة، فكما شهدت هذه الكلمة شهادة قاطعة بصفات الكاتب فما من ذرة في السموات والأرض من فلك وكوكب وشمس وقمر، وحيوان ونبات، وصفة وموصوف إلا وهي شاهدة على نفسها بالحاجة إلى مدبر دبرها، وخالق خلقها وقدرها وخصصها بخصوص من صفاتها. بل لاينظر الإنسان إلى عضو من أعضاء نفسه، وجزء من أجزائه ظاهراً وباطناً بل إلى صفة من صفاته، وحالة من حالاته التي تجرى عليه قهراً بغير اختياره، إلا ويراها ناطقة بالشهادة لخالقها وقاهرها ومدبرها.. وكذلك كل ما يدركه بحواسه فى ذاته وخارجاً عن ذاته. ولو كانت الأشياء مختلفة فى الشهادة يشهد بعضها ولايشهد بعضها لكن اليقين حاصلاً للجميع. ولكن لما كثرت الشهادات حتى اتفقت خفيت وغمضت لشدة الظهور".

وقال العلامة الشيخ مصطفى صبري شيخ الإسلام للدولة العثمانية سابقاً:

"إن هذه البيوت والمنازل التى يسكنها الناس فى المدن والقرى من قصور الملوك إلى أكواخ الفقراء إذا كان لابد لكل منها من بان فمن الذي بنى السموات والأرض؟ ومن هو مالكها المتصرف فيها، والمهيمن عليها، وفاعل هذه الأفعال البديعة التى يتضمنها الكون؟ فالذين لايؤمنون بوجود خالق الكون واضع نظمه مثلهم كمثل المنكرين لوجود من بنى تلك البيوت والقصور، القائلين بأنها مبنية من نفسها ما داموا لم يروا بانيها وهو يبنيها. ونحن المؤمنين بالغيب تحت إشراف العقل وإرشاده نعترف عند رؤية البناء بوجود الباني وإن لم نره. فالفرق بيننا وبينهم بسيط إلى هذا الحد.. فهل يسع الملاحدة أن يدَّعوا إمكان وجود بيت أو قصر من تلك البيوت والقصور التى هى صنع البشر بنفسها من غير وجود بانٍ وصانع؟

فإن لم يسعهم ذلك فكيف يسعهم القول بوجود صرح العالم بسمائه وأرضه بنفسه من غير وجود بانيه؟ أليس للسموات والأرض أهمية كأهمية واحد من البيوت المبنية بأيدي البشر حتى تستغنيا عما لايستغنى عنه من الباني.

أم كان استغناؤهما عن البانى لكونهما فى غاية العظمة والبداعة؟ أما الاحتمال الأول وهو كونهما فى الأهمية دون البيوت المبنية بأيدي البشر فباطل بالبداهة، أما الاحتمال الثاني، وهو أن يكون البناء الأعظم والأبدع مستغنياً عن الباني حين كان أقل البنيان وأحقره غير مستغن عنه ففي غاية البعد من العقل..

لا. لا. إن القائلين بإستغناء العالم عن الصانع لم يقولوا به لتفاهته ولا لكونه فى غاية العظمة. بل لأنهم وجدوا صرح العالم حاضراً أمام أعينهم مصنوعاً من غير حاجة إلى نشدان صانع له، ولو لم يجدوه حاضراً لما وسعهم القول

بوجود أصغر جزء منه من غير صانع. فسبب إستغناء العالم عندهم هو وجوده من غير حاجه إليه فى نظرهم، فهم ليسوا بأذكياء لحد أن يتنبهوا لما فى هذا التعليل من المصادرة على المطلوب..)

ومما تجب ملاحظته أن حياة الكاتب وقدرته وعلمه وإرادته، ومثله الباني لا شك فيها عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وعلمه وإرادته إذ هذه الصفات لاتدرك بشيء من هذه الحواس الخمس الظاهرة. وإنما عرفناها إستدلالاً ببنائه وكتابته.. فالقائل كيف أصدق بإله غير منظور ولا محسوس إن كان لايصدق بحياة الكاتب والباني وقدرتهما وعلمهما فقد خرج عن طور العقلاء وصار- حماراً برجلين- كما قال الغزالي... وإن صدق بهذه الصفات وهي غير منظورة ولا محسوسة لزمه التصديق بعلم الله تعالى وقدرته وحياته وإرادته، والعلم بدون ذاتٍ عالمة. والإرادة بدون مريد محال بديهي الإستحالة، فلا محيص من التصديق بوجود الله تعالى [أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ[1]]. فالحق سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار ولا الحواس الظاهرة كما قال جل شأنه [لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ[2]]. وإنما تدركه العقول. أي تثبت وجوده وتقر بذلك وأما حديث "إن الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار" فالمراد أن العقول لاتدرك حقيقته ولا تصل إلى كنه ذاته.

وقد جعل الله سبحانه الدنيا دار امتحان حيث حجب الأبصار عن رؤيته فيها مع أن هذه الرؤية ممكنة عقلاً ولكنه أقام الأدلة على وجوده وخلق العقول ومكنها من ذلك، وأرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام هادين ومرشدين وجعل أدلتهم معجزاتهم، وصفاتهم الكريمة التى جبلوا عليها من الصدق والأمانة

---

[1] سورة إبراهيم الآية: ١٠

[2] سورة الأنعام الآية: ١٠٣

والصبر والعلم والكرم والنزاهة.. إلخ وهذه الأدلة التى أقامها الله عزّ وجل على وجوده وعلى صدق رسله عليهم الصلاة والسلام كلها واضحة وميسورة فالإيمان بالله تعالى ورسله وكتبه نظري لا ضروري. لكنه نظري سهل ميسور جداً.. حتى قال بعض العلماء: إن معرفة الله تعالى ضرورية بديهية لا تحتاج إلى نظر وفكر.

وقال جماعة: إن الطريق إليها الرياضة والعزلة ومدوامة الذكر.

وقال قائلون: إنها تحصل بطريق الإلهام والتجلي.

والحق أن معرفة الله تعالى بالنسبة لغير المصطفين الأخيار الذين اصطنعهم سبحانه لنفسه، واختارهم لحضرة قدسه، وخرق لهم العادة فكشف لهم عن كمال ذاته، وعرفهم به أولاً ثم عرفهم الأشياء بعده– لا طريق لها إلا النظر والاستدلال ولما كان هذا الطريق واضحاً سهلاً قريباً من الأذهان لا يحتاج إلى كثير تعب ومعاناة بل يسبق إلى العقول بأدنى نظر وأقل اعتبار فى ملكوت السموات والأرض وفى أحوال الإنسان نفسه أطلق بعض العلماء القول بأن معرفة الله ضرورية لا كسبية فلا خلاف فى الحقيقة وإنما أحوال الناس هي التي تختلف، وعقولهم المتفاوتة وقلوبهم منها الصافى الرقيق ومنها الكدر الغليظ، وحكم القبضتين السابق أزلاً حين قال الحق تعالى :"هؤلاء للجنة ولا أبالي بعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار ولا أبالي ويعمل أهل النار يعملون" وهو الذي فرق بين الناس وجعلهم مختلفين ولا يزالون مختلفين.

عز بساط الحضرة أن تطأء حوافر الجهال فقالوا: أين الله؟.. فلا دليل على وجود الله.. مع أن الدليل موجود والوصول إليه سهل ميسر.

وتجلى الحق سبحانه لأسرار من اصطفاهم من خلقه فقالوا: وجود الله لا

يحتاج إلى دليل، حتى قيل إن تلميذاً سأل شيخه: أين الله؟ فقال الشيخ: اسحقك الله! اتطلب مع العين أين؟

قتل الحلاج: لأنه كان يقول ما فى الوجود الا الله.

وها نحن أولاء عشنا حتى سمعنا من يقول: لا شئ فى الوجود يسمى الله. فقارن بين المقاتلين، وانظر التفاوت الكبير بين الحالتين.

تباركت يارب وتعاليت.. كم فاوت بين عبادك. يناجيك بعضهم فيقول: إلهي مت غبت حتى تحتاج دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التى توصل إليك؟ وبعض عبادك قد وصلوا باختراعاتهم إلى قاع البحار، وكادوا يصلون إلى عنان السماء، يبحثون وينقبون، فما بالهم لا يجدوك ولا يعرفوك.

يفنى بعض عبادك فى مراقبتك عن حظوظ نفسه، ويتجافى عن مألوفاتها. فيقال له: رأينا جاريتك الزرقاء فى السوق فيقول: أو زرقاء هي؟

ويستغرق البعض فى شهواته وملذوذات نفسه، حتى لا يجد فراغاً يفكر فى عظمتك وجلال ملكوتك.

الكتب التى أنزلتها بحكمتك، والرسل الذين أرسلتهم لدعوة خلقك إليك قد بلغوا الرسالة، وأدوا الأمانة، وأسمعت كلماتهم من به صم والآيات التى بثثتها فى الآفاق وفى الأنفس يراها كل ذى عينين، وقد وهبت العقول وسهلت السبيل، ويسرت القرآن للذكر ولكن عبادك منهم المؤمن بك، ومنهم الكافر الجاحد.

كل ما اطلع عليه المؤمنون، ونظروا فيه من آياتك فكان سبب هدايتهم وإيمانهم، نظر فيه الطبيعيون المارقون فكان سبب كفرهم وضلاهم، فهل هذا إلا الدليل القاطع على إنك سبحانك الواحد القهار، تهدي من تشاء وتضل من

تشاء لا معقب لحكمك ولا راد لقضائك.

فى الدر المنثور للحافظ السيوطي أخرج الطبراني بسند مقارب – أي يقارب الصحيح – وأبو الشيخ فى العظمة عن مالك الأشعرى رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ "أن الله يقول: ثلاث خلال غيبتهن عن عبادي، ولو رآهن رجلاً ما عمل سوء أبدًا، أي فلا يكفر ولا يعصي – لو كشفت غطائي – هذه الخلة الأولى – فرآني حتى استيقن ويعلم كيف أعمل بخلقي إذا أمتهم وقبضت السموات بيدي، ثم قبضت الأرضين ثم قلت أنا الملك من الذي له الملك دوني، ثم أريهم الجنة – هذه الخلة الثانية – وما أعددت لهم فيها من كل خير فيستيقنوا بها، وأريهم النار – وهذه هى الخلة الثالثة– وما أعددت لهم فيها من كل شر فيستيقنوا بها ولكن عمداً غيبت عنهم ذلك لأعلم كيف يعملون وقد بينته لهم.

قلت هذا حديث قيم نفيس، فيه تقرير للواقع، وتأييد لما ذكرناه آنفاً من الله تعالى قد حجب الخلق عنه فى الدنيا لحكمه الابتلاء والاختبار وجعل الدليل عليه آثار صنعته، وآياته المنزلة على رسله عليهم الصلاة والسلام، وقد مكن العقول من معرفته والإيمان به، وأعطاها القدرة على النظر والاستدلال، وكذلك غيب الجنة وغيب النار للحكمة المذكورة وهي الابتلاء والامتحان، ليكون الإيمان بأمور مغيبة، ويظهر تباين رتب العباد.

فنحن المؤمنين بالله تعالى بدافع من فطرتنا، وبما أعطانا الله تعالى من العقول المميزة، وبإرشاد الرسل عليهم الصلاة والسلام، قد نظرنا فى أنفسنا، وفى أجناس الموجودات جواهرها وأعراضها المحسوسة والمعقولة، فوجدنا أثر الصنعة وإمارة الحدوث فيها فعرفنا أنها حادثه قطعاً، ومعلوم بضرورة العقل أن كل حادث لابد له من محدث، فأثبتنا بناء على ذلك أن لهذه الموجودات محدثاً

غيرها، بالضرورة أحدثها، ولا يكون أن يصح أن يكون مماثلاً لها وإلا لم يكن خالقها ومحدثها.. ولم ندع قط أننا رأينا ذاته تعالى.. فبأي وجه يدفع هذا الاستدلال الواضح القريب؟ وأي عقل سليم لا يسلمه ولا يرتضيه؟ ماذا يقول الشيوعيون والوجوديون فى هذا؟ قالوا: إننا لم نر الله، ولم تدركه حواسنا فلا نعترف بوجوده.

وبديهي أن هذا الكلام فيه تعطيل للعقل وإبطال لفائدته، وهو المنحة الوحيدة التى امتاز بها الإنسان عن الحيوان.

إن الله تعالى كما أعطانا الحواس لندرك بها المحسوسات، كذلك أعطانا العقول لندرك بها ما وراء المادة والحس.

العقل أكبر منحة وهبها الله تعالى لخلقه، ولذلك استحق أن يكون هو المرجع والدليل لأكبر مطلب، وأجل مقصود وهو العلم بالله تعالى خالق الأشياء ومسبب الأسباب

لماذا خلقت العقول يا هؤلاء. إذا لم يكن لها عمل غير عمل الحواس ومدراك غير مداركها؟ أتظنون أن العقول خلقت لتحصيل المآكل والمشارب وتدبير الحيل لاقتناص الشهوات الحسية فقط وهذا أخس فوائدها، وأقل الحكم المقصودة منها؟

الله عز وجل لم يجعل الحواس فى الدنيا دليلاً عليه تكريماً للعقول، وتقديراً للمواهب الانسانية فقد تفضل سبحانه فجعل الدلائل عليه قريبة سهله، ومعنى ذلك أنه جعلها متوسطة معتدلة بين الضروري الذي يبطل معه الاختيار والامتحان، والتعمية التي تصل إلى حد التعجيز والإعنات، والله بخلقه عليم وفي صنعه حكيم.

أم خلقوا من غير شيء

أخرج البخاري في صحيحه عن حبير بن مطعم ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ فى المغرب: [وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ][1] فلما بلغ هذه الآية: [أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ][2] كاد قلبى أن يطير.

وإنما تأثر قلبه رضي الله تعالى عنه هذا التأثر البليغ حتى كاد قلبه أن يطير لمعرفته بما تضمنته هذه الآيه من بليغ الحجة، وواضح البرهان، الذي تخضع له القلوب، وتخر له العقول ساجدة.

والمعنى –كما يقول أبو سليمان الخطابي– "أم خلقوا من غير شيء"– أي أوجدوا بلا خالق، وذلك ما لا يجوز أن يكون لأن تعلق الخلق بالخالق، يعني احتياج المخلوق والموجود لخالقه وموجده، من ضرورة الأمر، فلابد له من خالق، فحيث أنكروا الإله الخالق، ولم يجز أن يوجدوا بلا خالق خلقهم، أفهم الخالقون لأنفسهم وذلك فى الفساد أكتر وفي الباطل أشد، لأن ما لا وجود له كيف يجوز أن يكون موصوفاً بالقدوة، وكيف يخلق؟ وكيف يتاتى منه الفعل؟ وإذا بطل الوجهان معاً؟ وهما أن يوجدوا بلا خالق، أو يخلقوا أنفسهم، قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقاً، فليومنوا به إذن، ثم قال تعالى: [أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ]

وذلك ما لا يمكنهم أن يدعوه بوجه، فهم منقطعون، والحجة لازمة لهم، ثم قال "بل لا يوقنون" فذكر العلة التى عاقتهم عن الإيمان وهي عدم اليقين التي هي موهبة من الله عزوجل فلا ينال إلا بتوفيقه.

---

[1] سورة الطور الآية ١، ٢

[2] سورة الطور الآيتان: ٣٥، ٣٦

وعن الإمام الشافعي ﷺ قال: استقبلني سبعة عشر زنديقاً في طريق غزة فقالوا ما الدليل على الصانع؟ فقلت لهم: إذا ذكرت دليلاً شافياً فهل تؤمنون؟ قالوا نعم، فقلت نرى ورق الفرصاد، – شجر التوت – طعمها ولونها وريحها سواء، فيأكلها دود القز فتخرج من جوفها الأبريسم، ويأكلها النحل فتخرج من جوفها العسل، وتأكلها الشاه فتخرج من جوفها البعر، فالطبع أن كان موجباً عندكم فيجب أن يوجب شيئاً واحداً لأن الحقيقة الواحدة لا توجب إلا شيئاً واحداً، ولا توجد متضادات متنافرات. ومن جوز هذا كان عن العقول خارجاً وفي التيه والجاً، فانظروا كيف تغيرت الحالات عليها فعرفنا أنه فعل صانع عالم قادر، يحول عليها الأحوال، ويغير التارات – جمع تارة – فبهتوا، ثم قالوا، لقد أتيت بالعجب العجاب، فآمنوا وحسن إيمانهم.

قلت :وأصل ما قاله الإمام قول الله عز وجل: [وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ][1] والمعنى أن قطع الأرض تكون متجاورة متلاصقة، ومع ذلك فهي مختلفة في طبعها وحقيقتها، فبعضها تكون رخوة وبعضها تكون صلبة، وبعضها تكون سبخة، وبعضها تكون طيبة، وبعضها تكون حجرية، وبعضها تكون رملية، فما هذا الاختلاف، مع أن الشمس والكواكب المشرقة على تلك القطع متساوية، لا اختلاف فيها، فدل هذا على أن اختلافها في طبائعها وصفاتها بتقدير العزيز العليم، وأيضاً أن القطعة الواحدة من الأرض، تسقى بماء واحد، وتطلع الشمس عليها بنسبة متساوية مع أن ثمارها تجنى مختلفة في طبعها ولونها وخاصيتها، حتى إنك لتأخذ عنقوداً من العنب، فتكون جميع حباته نضيجة إلا

[1] سورة الرعد الآية: ٤

حبة واحدة بقيت حامضة يابسة، فما سر هذا الاختلاف، أن هذا لهو الدليل القاطع على أنه فعل صانع مختار وعالم حكيم.

وحكي أن رجلاً أنكر الصانع عند جعفر الصادق ﷺ ففتح له باب الاستدلال – الاستدلال العقلي المحض– فلم يصغ إليه. فقال له: هل ركبت السفينة قط؟ قال نعم انكسرت بنا مرة فطلعت على لوح إلى الساحل، فانقلت مني اللوح. فقال له جعفر: لما ذهب عنك اللوح كنت ترجو السلامة ممن، حين ذهب اعتمادك على الأسباب؟ فسكت الرجل، فقال جعفر، الذي رجوت منه السلامة هو الذي خلقك، فأسلم الرجل.

وهذا إشارة إلى دليل الفطرة، وهو ما يجده الإنسان من الشعور الباطنى بأن هناك سلطة غيبية قاهرة مسيطرة على الكون يتوجه إليها الإنسان عندما يقع فى شدة، وتنقطع عنه الأسباب ويتعذر اعتماده عليها.

وهو موجود في كل نفس وإنما تغفل عنه النفوس فى حال انغماسها فى الشهوات، وتقلبها فى أعطاف النعم، وتأثرها بغواشي الوهم والحس، فإذا وقعت فى شدة، وذهبت الأسباب وتعذرت الحيل، أحست به، وشعرت بوجوده.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: [وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ][1] وبقوله: [وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ][2]

وقد استدل بعض العلماء على وجود الله تعالى ووحدانيته، بوجود الروح

---

[1] الإسراء الآية: ٦٧

[2] سورة النحل الآية: ٥٣ و٥٤

فى البدن من عشرة أوجه:

الوجه الأول: أن الهيكل الإنسانى لما كان مفتقراً إلى مدبر ومحرك، وهذا الروح يديره ويحركه، علماً أن العالم لابد له من محرك ومدبر.

الوجه الثانى: لما كان مدبر الجسد واحداً، وهو الروح. علمنا أن مدبر هذا العالم واحد لا شريك له فى تدبيره وتقديره، لا جائز أن يكون له شريك فى ملكه. [لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا][1]، [قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا][2]

الوجه الثالث: لما كان هذا الجسم لا يتحرك إلا بإرادة الروح وتحريكها له علمنا أنه مريد لما هو كائن في كونه، لايتحرك بخير أو شر إلا بتقديره وإرادته وقضائه.

الوجه الرابع: لما كان لا يتحرك في الجسد شيء إلا بعلم الروح، وشعورها به، لا يخفي على الروح من حركات الجسد وسكناته شيء. علمنا أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

الوجه الخامس: لما كان هذا الجسد لم يكن فيه شيء أقرب إلى الروح من شيء. علمنا أنه قريب إلى كل شيء، ليس شيئاً أقرب إليه من شيء، ولا شيء أبعد إليه من شيء. لا بمعنى قرب المسافة. جلّ ربنا وتنزه عن ذلك.

الوجه السادس: لما كان هذا الروح موجوداً قبل وجود الجسد، ويكون موجوداً بعد فقد الجسد. علمنا أنه سبحانه كان موجوداً قبل وجود خلقه،

---

[1] سورة الأنبياء الآية ٢٢

[2] سورة الإسراء الآيتان ٤٢ و٤٣

ويكون موجوداً بعد فقد خلقه. مازال ولايزال وتقدس عن الزوال.

الوجه السابع: لما كان الروح في الجسد لا يعرف له كيفية. علمنا أنه تعالى متقدس عن الكيفية.

الوجه الثامن: لما كان الروح في الجسد لا يعرف له أبنية. علمنا أنه جل وعلا مقدس عن الأبنية والكيفية. لا يوصف بأين، ولا كيف.

بل الروح موجودة في سائر الجسد ما خلا منه شيء في الجسد، كذلك الحق سبحانه وتعالى موجود في كل مكان، ما خلا منه مكان، وتنزه عن المكان والزمان.

الوجه التاسع: لما كان الروح في الجسد لا يحس ولا يجس ولا يمس.

علمنا أنه ينزه عن الحس والجس والمس.

الوجه العاشر: لما كان الروح في الجسد لا يدرك البصر، علمنا أنه لا يدرك بالأبصار، ولا يمثل بالصور والآثار، ولا يشبه بالشموس والأقمار [لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ[1]].. قيل وهذا معنى قولهم: من عرف نفسه فقد عرف ربه.

---

[1] سورة الشورى الآية: ١١